مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٠، العدد ٣، خريف ١٤٣٥ هـ
صفحة ٥١١- ٥٣١

قسوة الغربة والحنين إلى الوطن في شعر بعض من شعراء المهجر المختارين

مريم هاشمي[١*]، معصومه نعمتي قزويني[٢]

١. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بآكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية

٢. أستاذة مساعدة في اللغة العربية وآدابها بآكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٤/١١/٦ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٤/١٢/١٥)

الملخّص

لو ألقينا نظرةً على الماضي البعيد لوجدنا أن نزعة الاغتراب كانت مستشرية في النفوس منذ القدم، وهي تُروي المغامراتِ الطريفةَ التي كانوا يقومون بها المهاجرون لكي يشفوا غليلهم المتعطش إلى اقتحام المجهول. والمهاجرة أمرٌ طبيعيٌ بين البشر عرفتها أقدم الشعوب، وذلك يوم أراد الإنسان الانتقال من مقرٍّ إلى آخر سعياً وراء المادّة والغذاء؛ على سبيل المثال لقد اعتاد اللبنانيون على المهاجرة ومغادرة البلاد؛ إذ لديهم حبّ الأسفار والميل إلى الأبحار والإتجار، بينما تدرّبوا وهم في بلادهم على مخالطة الشعوب الغربية. فخلفية الهجرة في لبنان من جهة، والقضايا السائدة والمسيطرة على الدول العربية في ظروفها الإجتماعية والسياسية وخاصة في أوائل القرن العشرين من جهة أخرى، سبّبت هجرة شمل من الأدباء اللبنانيين الفحول إلى الغرب. وهذا التيار شكل وأضاف فرعا إلى فروع الأدب العربي الموسوم بـ«الأدب المهجري». فكان هذا الأدب إما من حيث المضامين وإما من حيث الخصائص الفنية متميزة عن الأدب العربي آنذاك. فقام هذا البحث في إطار المنهج الوصفي- التحليلي بدراسة أشعار بعض الشعراء المهجريين، وتوصّل إلى نتائج أهمّها: أولاً: كانت القضايا السياسية والاقتصادية والدينية من أهمّ أسباب الهجرة من وجهة نظر هؤلاء الشعراء. ثانياً: لم تتحقّق الهجرة أمنيات هؤلاء الشعراء قطّ، بل شكل مشاعر الحزن واليأس والإحباط لديهم.

الكلمات الرئيسية

الغربة، الحنين، الوطن، الشعر، المهجر.

---

* الكاتب المسؤول
Email: Mhashemi27@hotmail.com

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

ممّا لا شكّ فيه أننا لا يمكننا أن نعالج بحثاً ما، دون أن نرجع إلى أرضية ثابتة نرتكز عليها ونثبتُ في فسحة مجالها الأدلة الوثيقة عنها؛ ولكي يكون لهذا البحث دعائم متينة، لابدّ أن نرجع إلى النبع الأصلي الذي انبعثتْ عنه دعائم الحنين إلى الوطن عند بعض من أدباء المهجر. إذاً توخياً للسهولة وطلباً للفائدة قسّمنا هذه الدراسة التي تتضمَّنُ إضاءات على نزعة الاغتراب وقسوة الغربة والشعور بالحنين نحو أرض الوطن، إلى خمسة محاور رئيسة. ناقشنا في المحور الأول تاريخية الهجرة وفي المحور الثاني الهُجُرات الأولية وفي المحور الثالث أسباب الهجرة وبواعثها مستندين فيه إلى بعض الأدباء الذين فسروا حوافز سفرهم من أرض الجدود، وأما المحور الرابع ناقشناهُ في تأثير الهجرة على المغتربين من الناحية النفسية. وقد توّجت المقالة بنتيجة بيّنا فيها الاستنتاجات التي توصّلت إليها الدراسة. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على التحليل والاستنباط من الأبيات الشعرية للأدباء المهاجرين مشيرين في صلب الأبيات إلى قسوة الغربة والحنين إلى أوطانهم.

خلفية البحث

هناك دراسات علمية تناولت البحث عن الغربة في الشعر العربي وهي:

- مقالة «مفاهيم الاغتراب والتغريب في الأدب العربي»، لحسين شمس آبادي ومهدي ممتحن، مجلة «دراسات الأدب المعاصر»، السنة ٤، العدد ٢ التي درس فيها المؤلفان أثر الاستعمار في شيوع الغربة في البلاد العربية.
- مقالة «أثر الغربة والاغتراب في شعر الجواهري»، لرافد سالم سرحان شهاب، مجلة «التقني»، العدد ٦، ٢٠١٣.
- مقالة «موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوي» لرسول بلاوي وآخرين، مجلة «دراسات في العلوم الإنسانية»، العدد ٣، ٢٠١٢.
- مقالة «الاغتراب عند نازك الملائكة» لمهدي ممتحن وحسين شمس آبادي، مجلة «دراسات الأدب المعاصر»، السنة ٣، العدد ١٢.
- مقالة «غربت گزيني در شعر بدر شاكر السياب»، لمهين حاجي زاده وعلي فضامرادي، مجلة «لسان مبين»، السنة ٢، العدد ٣، ١٣٩٠.

Archive of SID

www.SID.ir

كما يلاحظ، رغم معالجة موضوع الوطن والغربة في أشعار بعض من الشعراء العرب، حتى الآن لم تكن دراسة مسبوقة طرحت وعالجت نفس القضية بهذا المجرى. فالبحث الحاضر يتميز عن أقرانه من الدراسات السابقة بشاخص، ألا وهو أنها استطلعت تحديدا الهجرة لدى فحول الشعراء المهجريين لأنّ ظاهرة الغربة والحنين إلى الوطن، شغلت دورا أساسيا وموقفا خاصا في الأدب المهجري كما أعطته لونا خاصاً متميزاً.

أسئلة البحث

فهذه الدراسة المختصرة لا يمكن أن يستوعبَ جميع الأدباء والشعراء في المهجر، إذاً سلّطنا الضوء على من يمثّل الآخرين في المهاجر الشمالية والجنوبية . ومن خلال ذلك يمكن الاستجابة للأسئلة التالية:

- ما هي أهمّ أسباب الهجرة من وجهة نظر هؤلاء الشعراء المهجريين؟
- كيف تكون مكانة الوطن لدى هؤلاء الشعراء؟
- إلى مدى وصلوا هؤلاء الشعراء إلى أمانيهم المنشودة بعد تحمّل الحرمان ومرارة الهجران؟

تاريخية الهجرة

إذا تصفّحنا كتب تاريخ الأدب العربي لنرى أمثلةً في إثبات حبّ السفر والهجرة، منها:

۱. لدى الشعراء: الشعراء منذ القدم يحتذون الهجرة، ويرغّبون الناس على القيام بها.

أ- الشنفرى: لعلّ أوّل شاعر عربي رفع عشيرته بالدعوة إلى الهجرة هو «الشنفرى»[1] في «لامية العرب» قائلاً:

أقيمُوا بَني أُمّي صُدورَ مَطيّكُم ... فإنّي إلى قَومٍ سِواكُم لَأمْيَلُ
فَقَدْ حُمّتِ الحَاجَاتُ[2] واللّيلُ مُقْمِرٌ ... وشُدّتْ لطَيّاتٍ[3] مَطَايا وأرْحُلُ

---

۱. الشنفرى: (؟ - ۵۵٤م) عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان، شاعر جاهلي، يماني، من فحول الطبقة الثانية وكان من فتاك العرب وعدائيهم، قتلهُ بنو سلامان. وهو صاحب لامية العرب، شرحها الزمخشري في أعجب العجب المطبوع مع شرح آخر منسوب إلى المبرّد (انظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ۲۰۰٦، ص۱۰۷).

۲. حُمّت: حضرت (انظر: لسان العرب، ج۱، ص۷).

۳. طَيّاتٍ: مفردها طيّة وهي الجهة التي إليها يطوي البلاد. والطية: السفر (انظر: لسان العرب، ج۱، ص۷).

Archive of SID
www.SID.ir

والظاهر من كلام الشاعر أنّه نوى رحلةً بعيدة المدى في جماعةٍ من قومه، ولو كانت رحلتهُ رحلة فرديّة من الرحلات المألوفة، لمَا وقف عندها، ولمَا أشار إلى المطايا والأرحل بل كان امتطى قدميه (صيدح، ١٩٦٤، ص١٧).

ب- الطغرائي: نرى بعد الشنفرى «الطغرائي»[١] في قصيدته «لامية العجم» حيث يعتقد أن هناك عزٌّ ينتظر الإنسان في انتقاله من مكان إلى آخر، قائلاً:

إنّ العُلى حَدَّثَتْني وهي صادقةٌ ... فيمَا تُحَدِّثُ: أنَّ العِزَّ في النُّقَلِ
لو أنَّ في شَرَفِ المأوى بُلُوغَ مُنى ... لم تَبرَحْ[٢] الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ

(الحموي، ١٩٨٧، ص٢٤)

٢. لدى فلاسفة العرب:

ابن خلدون: لو أمعنا النظر في مقدمة ابن خلدون لوجدنا أن فيلسوف العرب، يحضّ على الرحلة في طلب العلم والاجتماع بالعلماء والاستفادة من علمهم وأدبهم، لذا كان هو أوّل من دعا إلى إيفاد البعثات العلمية إلى دنيا الاغتراب. ولابدّ من القول أنّ دعاة الاغتراب عن الوطن كانوا يفترضون الهجرة، سياحة مؤقتة هدفها الاستفادة من ثمرات الأرض الغريبة، ومن علوم سكّانها، ثمّ العودة إلى الدار للتمتّع بالفائدة الحاصلة (صيدح، ١٩٦٤، ص١٠).

البدايات الأولية للهجرة

لو عدنا إلى التاريخ نستنطق وقائعه، لوجدنا أنّه كان للعرب هجرتان أحدثتا تأثيراً عميقاً في حياتهم الفكرية، منهما: (صيدح، ١٩٦٤، ص١١)

١. الهجرة التي تمَّت على يد الرسول محمّد ﷺ مع أصحابه، حين قصدوا إلى المدينة المنوّرة في فجر الإسلام.

---

١. الطغرائي: (١٠٦٣ - ١١٢٠م) شاعر، من الوزراء الكتاب، كان ينعت بالأستاذ، ولد بأصبهان، اتصل بالسلطان مسعود السلجوقي (صاحب الموصل) فولاه وزارته. اقتتل السلطان مسعود وبعد أن ولى الحكومة أخ له اسمه السلطان محمود، قبض على رجال مسعود وفي جملتهم الطغرائي، فأراد قتله ثم خاف عاقبة النقمة عليه؛ لأن الطغرائي كان مشهوراً بالعلم والفضل، فأوعز إلى من أشاع اتهامه بالإلحاد والزندقة فتناقل الناس ذلك، فاتخذ السطان محمود حجة فقتله. له (ديوان شعر)، وأشهر شعره (لامية العجم). وله كتب منها (الإرشاد للأولاد) (انظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ٢٠٠٦، ص١٥٦).

٢. لم تبرح: لم تترك (انظر: المنجد في اللغة، ص٣٣).

Archive of SID

www.SID.ir

٢. هجرة أفواج الشاميين العرب إلى شواطئ أمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

أما أقدم أديب هاجر إلى الغربة، هو ميخائيل رستم[١]، والد الشاعر أسعد رستم[٢] الذي كان فيما بعد من شعراء الرابطة القلمية في الولايات المتحدة الأميركية، ولقد تكاثر عدد المهاجرين بعد الثورة العرابية (١٨٧٩-١٨٨٢م)، حيث سافروا إلى كندا، والولايات المتحدة، والبرازيل، وشيلي، والآرجنتين وغيرها من دول أميركا (الخفاجي، ١٩٨٠، ص٢٤).

ومن أوائل الشعراء الذين هاجروا إلى أميركا الشمالية الشاعر ندرة الحداد[٣] وتبعهُ رشيد أيوب[٤] ونسيب عريضة[٥]، وتوالتْ الهجرة بعد ذلك فهاجر عبدالمسيح حداد[٦] عام ١٩٠٧

١. ميخائيل رستم: (؟) لبناني الأصل ووالد الشاعر أسعد رستم، أول أديب هاجر إلى الأرض الجديدة. من آثاره: منظومات الغريب في الغرب (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص١٤٥).

٢. أسعد ميخائيل رستم: (١٨٧٨-١٩٦٩م) ولد في مدينة بعلبك بلبنان وتوفي في نيويورك. هاجر إلى نيويورك عام ١٨٩٢، من ثم كان من أقدم الشعراء في المهجر الأمريكي. زاول في نيويورك التجارة، واهتم بنظم الشعر. وشارك في تأسيس «جمعية النهضة» في نيويورك، وألقى فيها شعره عبر المناسبات. ولقبه أصدقاؤه ومحبو شعره بألقاب: شاعر السيف ـ النسر المحلق ـ شاعر الشعب. من آثاره: ثلاثة دواوين: «الرستميات» و«ديوان أسعد رستم»، و«الناي» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص١٥٦).

٣. ندرة حداد: (١٨٨١-١٩٥٠م) شاعر سوري من شعراء المهجر، وكان واحداً من الأعضاء المؤسسين البارزين لجماعة «الرابطة القلمية» التي أسسها أدباء المهجر الشمالي في نيويورك. كان هادئ الروح بعيد جداً عن الفضول. كان يميل إلى الإيجاز في القول. متعبِّد صوفي النزعة ويُبشِّر برسالة الحب الإنساني. من آثار له ديوان شعره «أوراق الخريف» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص ٢٦٨).

٤. رشيد أيوب: (١٨٧١ - ١٩٤١م) شاعر لبناني، اشتهر في المهجر الأميركي، ولد في بسكنتا (من قرى لبنان) ورحل سنة ١٨٨٩م، إلى باريس، فأقام ثلاث سنوات، وانتقل إلى مانشستر فأقام نحو ذلك، وهو يتعاطى تصدير البضائع، وعاد إلى قريته، فمكث أشهراً. وهاجر إلى نيويورك، فكان من شعراء المهجر المجلين، واستمر إلى أن توفي، ودفن في بروكلن. كان ينعت بالشاعر الشاكي، لكثرة ما في نظمه من شكوى عَنَتِ الدهر. له: «الأيوبيات» من نظمه، نشره سنة ١٩١٦، و«أغاني الدرويش» نشره سنة ١٩٢٨، و«هي الدنيا» سنة ١٩٣٩ (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٤٥).

٥. نسيب عريضة: (١٨٨٧ - ١٩٤٦م) شاعر أديب، من مؤسسي (الرابطة القلمية) في المهجر الأميركي. ولد في حمص وتعلم بها، ثم بالمدرسة الروسية بالناصرة، وهاجر إلى نيويورك (سنة ١٩٠٥) فأنشأ مجلة (الفنون) سنة ١٩١٣ وأغلقها ثم أعادها، وأضاع في سبيلها ما يملك. وعمل في التجارة، ثم تولى تحرير الجريدة اليومية، «مرآة الغرب والهدى» وتوفي في مدينة بروكلن. من آثاره: «الأرواح الحائرة» ديوان شعره، و«أسرار البلاط الروسي» قصة مترجمة، و«ديك الجن الحمصي» قصة نشرها في (مجموعة الرابطة القلمية) (انظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ٢٠٠٦، ص٢١١).

٦. عبدالمسيح حداد: (١٨٩٠ - ١٩٦٣م) شاعر ناقد وأديب سوري مبدع وصحافي بارز وسوري وطني أصيل من أدباء المهجر. كان من مؤسسي الرابطة القلمية في نيويورك. ولعبد المسيح حداد مؤلفات أدبية واجتماعية متعدّدة منها: «حكايات المهجر» و«انطباعات مغترب» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٥٦).

Archive of SID

www.SID.ir

إلى نيويورك ثمّ كان من أوائل المهاجرين ميخائيل نعيمة[١] الذي هاجر إلى ولاية واشنطن عام ١٩١٦م (صيدح، ١٩٦٤، ص١٩).

أسباب الهجرة وبواعثها عند الشعراء المهجريين

يشير المؤرخون إلى أهم أسباب الهجرة اللبنانية إلى أميركا، فيرون أنّ وجود الإرساليات التبشيرية الأميركية من أقوى تلك الأسباب، أمّا محمّد يوسف نجم فيذكر أنّ هناك دافعاً سياسياً وهو ضغط حكومة الآستانة على رعاياها، ولاسيّما غير المسلمين والسبب في ذلك إنّها بضعفها كانت تخشى كلّ حركة تحرّريّة تبدو بوادرها بين الشعب وتحاول خنقها في المهد، لذا عمدتْ إلى بثّ جواسيسها بين أبناء الشعب لكي يكون الحكام مسلّطين على كلّ تحركاتهم (الخفاجي، ١٩٨٠، ص١٣).

نجد أنّ هذه الأسباب تضافرت على تزهيد المواطن في بلده، وترحيله عن موطنه، ولم يجد أمامه من وسيلة سوى النزوح صوب العالم الجديد طلباً للحريّة وفراراً من الظلم والجور والطغيان السياسي. إذاً لولا الاستبداد ما هاجر المواطنون من أوطانهم وبعد أن أصبح مُستَشرياً في ربوع الشام وبدأ يشتدّ ويعنفُ، أذلّ الأحرار وأطفأ كلّ مشعل للحريّة، لذا كان طبيعياً أن يكره الناس الحكم التركي كرهاً مقيتاً.

يقول نسيب عريضه في قصيدته «حكاية مهاجر سوري»:

غَريبـــاً مِـــن بـــلادِ الشَّـــرقِ جِئـــتُ ... بَعيـــداً عَـــن حِمَـــى الأَحبـــابِ عِشْـــتُ
اتَّخـــذْتُ أميركـــا وطنـــاً عزيـــزاً ... فَكَانَـــتْ لي كأحســـنِ مَـــا اتَّخَـــذْتُ
أتَاهـــا للغِـــنى غَـــيري، وأنّـــي ... كَمـــا جَـــاوؤا مَـــعَ الأقْـــدامِ جِئـــتُ
وَلكِـــنْ طَلَبـــتُ بِهـــا حَـــياةً ... مَـــعَ الحُريَّـــةِ المُثْـــلى، فَنِلْـــتُ

(عريضة، ١٩٦٤، ص١٤٥)

ويقول الشاعر المهجري مسعود سماحة[٢]، الذي هاجر إلى أميركا عام ١٩١٣م وهو يفارق وطنه:

---

١. ميخائيل نعيمة: (١٨٨٩-١٩٨٨م) ولد في قرية بسكنتا بلبنان. مفكر عربي وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وكاتب مقال ومتفلسف في الحياة والنفس الإنسانية، من آثاره: «كان ما كان»، «المراحل»، «دروب»، «زاد المعاد»، «البيادر»، «النور والديجور» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٢٥٢).

٢. مسعود سماحة: ولد في بلدة دير القمر (لبنان) وتوفي في الولايات المتحدة الأمريكية. عاش في لبنان والولايات المتحدة الأمريكية. من آثار له ديوانه بعنوان: «ديوان مسعود سماحة» وله قصائد في كتاب «الشعر العربي في المهجر». وقصائد نشرتها صحف ومجلات عصره، منها: قصيدة «تحية أديب» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص١٩٨).

Archive of SID

www.SID.ir

سَـــأتْرُكُ أرضـــي الجُـــدُودَ، فَفِيهـــا حيـــاةُ الجَبَـــانِ ومَـــوتُ الجَـــرئ
تُقَيِّـــــدُ أقـــــلامَ أحْرَارِهَـــــا وتُطلِـــــقُ أيـــــدِي ذَوِي المِيْسَـــــرِ
سَأضـــــرِبُ في الأرضِ لا خَائفـــــاً مِـــــن البَـــــرِّ أو لُجَـــــجِ الأبحُـــــرِ
ســـــلامٌ علـــــى أرضِ كُولبـــــسَ ســـــلامٌ عَلَـــــى رَبْعِهـــــا الأزهَـــــرِ

(سماحة، ١٩١٨، ص١٤)

نستشفُّ من الأبيات المذكورة أعلاها، أن السبب الرئيس الذي حدا بهؤلاء الشعراء إلى ترك أراضي آباءهم واختيار تلك البلاد من المهجر، فإنّما يعود أولاً إلى تلك الظروف القاسية التي أحاطت بالبلاد من الخفقان ونهب الثروات من قبل المستكبرين الذين فسدوا بالأرض وهم أنفسهم يزعمون الصلاح والعمران وثانياً المبشّرين الأجانب من بلاد الغرب الذين كانوا يقصدون الشرق لأسباب سياسية أو اجتماعية، ولقد لعبوا دوراً كبيراً عن طريق الترغيب في الهجرة والحثّ عليها، وتحبيب البلاد الأجنبية إلى نفوسهم المشتاقة. والحقيقة التي لا مردّ منها هي أنّ الأغلبية المطلقة من المهاجرين كانوا مسيحيين وهذا أمر طبيعي بالنسبة للحوادث الدامية التي أحدثها التعصّب ضدّهم، والتي أشعل نارها النزاع الطائفي المرير. فهؤلاء المسيحيون تجشّموا المخاطر وتعرّضوا للنوائب تعرباً من واقع مرّ. وتخلصّاً من سيف ذي حدّين مسلّط فوق رقابهم، سيف العثمانيين الذي يهدّد الحريّة في عقر دارها، وسيف البطالة والفقر الذي يفتح منه أبواب المسكنة والجوع.

والعامل الأوّل الذي يذكرهُ مسعود سماحه في هجرة المهجريين ولا مردّ منها هي أنّ الأغلبية المطلقة من المهاجرين كانوا مسيحيين وهؤلاء بالنسبة الحوادث الدامية التي أحدثها التعصب ضدهم وأشعل نار النزاع الطائفي المرير، طبيعيٌ أن يهاجروا عن أوطانهم؛ والحكومة العثمانية بممارسة الأعمال الإجرامية البشعة في حقّ الشعب المسيحي أرغَمَهُم على الهجرة رغم أنها كانت تبادرُ مخالفتها رسميةً (الخفاجي، ١٩٨٠، ص٢٣).

أما العامل الثاني الذي دفعهم إلى الهجرة هو العامل الاقتصادي، فالمهاجرون العرب خلّفوا وطناً بائساً ضاقت ربوعه عن سبيل الرزق ولم يكونوا هم أنفسهم إلا ضحيّة ذلك البؤس، كما لم تكن هجرتهم إلاّ تمرّداً على ما كانوا فيه من عسر (الخفاجي، ١٩٨٠، ص٢٣).

إذاً يمكن القول أن تعصب الأتراك العنصري سبب في إثارة النعرات الطائفية وإقامة البراهين ضد المسيحيين من قبل حكومة الآستانة، أتتْ أُكُلَها وبالنتيجة نرى هجرة عدد كبير

Archive of SID

www.SID.ir

منهم إلى المهجر الشمالي والجنوبي، وكذلك الفقر والحرمان الذي قال الإمام علي عليه السلام عنه: «الفقرُ يُخرِسُ الفَطِنَ عن حجَّتِه والمُقِلُّ غريبٌ في بلدتِه» (الطبرسى، ١٣٦٣، ص١٨). والظروف الاقتصادية التي كانت تلعبُ دوراً هاماً في حياة المواطنين، بدأت تتأزم يوماً بعد يوم بحيث أجبرت الأبناء على المهاجرة والنزوح عن الأوطان رغم تمايلهم إليه.

من هنا ظلّ شبح الفقر راسخاً في مخيّلتهم، ومشاهد البؤس ماثلة في أنفسهم، وقد ألحّتْ الذكرى الأليمة على مشاعر الشاعر القروي[1] فاستعادت نفسه تلك الأيام السّود بينما يقول:

بَكيتُ على الشَّعبِ الذي ضَاعَ مَجدَهُ وَحَانَتْ لَهُ في المَكْرُمَاتِ وَفَاةُ

(سليم الخوري، ١٩٧٨، ص١٣٦)

لابدّ من التنويه أنّ العامل الاقتصادي كان العامل الأهم والأقوى في تهديد أرواح الفلاحين الذين لا تعرف قدورهم اللحم إلا مرة في العام، بينما يسمعون الأخبار عن البلاد البعيدة بأنّ فيها تدرّ الخيرات والنِّعم ويعلّقون عليها أمانيهم، والعامل المهمّ ممّا أغراهم بطلب السفر هو ماكانوا يسمعونه عن المهاجرين الأوائل الذين حازوا على النجاح والموفقية والغنى في مهاجرهم ويقيناً لو أتيح لهؤلاء معرفة الغيب والتعرف على الأهوال التي تنتظرهم في السفر، لعدلوا عن الهجرة، رغم كلّ العوامل القاهرة التي دفعتهم إليها.

فالشاعر إيليا أبوماضي[2] لم يمض وقت طويل على وصوله إلى المهجر حتى تبدّل رأيه في الهجرة، قائلاً:

نَحنُ في الأرضِ تَائِهُونَ كَأنّا قَومُ مُوسى في اللَّيلةِ الظَلْمَاءِ

---

١. الشاعر القروي: (١٨٨٧ – ١٩٨٤م). رشيد سليم الخوري، لبناني من شعراء المهجر.هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٣م، وعاش هناك حياة حافلة بالكفاح والعمل. وقد كان من أقوى الأصوات العربية الوطنية في المهجر، لذلك حاربه الاستعمار الفرنسي. وقد منحه الرئيس جمال عبد الناصر، بعد قيام الوحدة، وساماً رفيعاً تقديراً لأدبه وعروبته، عندما عاد إلى وطنه بعد خمسة وأربعين عامًا من الهجرة. شارك في تأسيس العُصبة الأندلسية. أصدر سبعة دواوين شعرية، منها: الرشيديات؛ القرويات، والأعاصير. وجمع شعره كله في ديوان كبير سمّاه ديوان القروي يقع في ٩٢٦ صفحة. وقد لقب نفسه بالقروي اعتزازاً بالقرية وأهلها، ولمّا سخر منه حساده وقالوا عن شعره إنه (قروي) يفتقد الرقة والخيال (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص١٠١).

٢. إيليا أبوماضي: (١٨٨٩– ١٩٥٧م)، شاعر وصحفي لبناني من أشهر أدباء المهجر. ولد في قرية المحيدثة، وترك المدرسة في سن الحادية عشرة، متوجهًا إلى الإسكندرية طلبًا للرزق عن طريق التجارة، مخصصًا بعض أوقاته للمطالعة ونظْم الشعر. تأثر ببيان القرآن الكريم، وأفكار المعري، وشعر أبي نُوَاس. له ثلاثة دواوين هي: ديوان أبي ماضي (١٩١٨م)؛ الجداول (١٩٢٧م)؛ الخمائل (١٩٤٧م). وبعد وفاته نشرت له دار العلم للملايين ديوان تبر وتراب (١٩٦٠م) (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص١٢).

Archive of SID

www.SID.ir

واغْتِـــرابُ القَـــويِّ عِـــزٌّ وفَخـــرٌ واغْتِـــرابُ الضَّـــعيفِ بَـــدءُ الفنَـــاءِ

(أبوماضي، دون تا، ص١٤٥)

نستوضح من الأبيات أن الشاعر في دروب الحياة المتشعّبة يغادر بلده بينما يسير قلقاً يتلمّس الطريق وأمام عتبة المجهول يقفُ حائراً لا يعلم ما ينتظره وما تخبئه له حياة الغربة من مفاجآت قاسية، لقد وجد نفسه في حالة تشغل الذهنَ ظواهر لا يعلم لها تفسيراً وأسئلة لا يجد عنها أجوبة. يحاول كشف غياهب الذات وسرّ الوجود فيرتدّ عاجزاً، ولكنّه مع ذلك يبقى يفكّر متسائلاً متأمّلاً.

مفهوم الوطن وسط الإحساس بعنف التشرّد وقسوة الغربة

خرج المهاجرون والآمال تداعبهم، ولكنهم غير واثقين مما تُخَبِّئُهُ لهم الأقدار في جعبتها فلقد كان لديهم الكثير من الأمل في الحرية، وفي الغنى، وهذا ما عبّر عنه الشاعر شكر الله الجُرّ[1] قائلاً:

فَيَـــا ليـــتَ شِـــعري: أيَحْظَـــى المهَـــاجرُ فِيمَـــا يُرْجِيـــهِ مِـــن هِجْرتِـــهِ

(الجُرّ، ١٩٣٤، ص١٤)

ولكن التمنّي شيء والواقع شيء آخر، إذ سرعان ما ارتطمت آمالهم بصخور الواقع المريرة وذلك بعد أن تفتحت أعينهم على الحقيقة وتلمسوا الفرق الشاسع الذي يفصل بينهم وبين أبناء البلاد. وتبدأ سلسلة العذاب حالما تطأ أقدامهم على الباخرة، حيث أن السمسار كان يُعذِّبُهم جميع أنواع العنف والإهانات فكانوا يعيشون مع أمثالهم عيشة القطيع الذي تطاردهُ الذئاب. إن صعدوا إلى ظهر الباخرة تعرضوا للحرّ والأمطار والرياح. وإن احتشدوا في الطوابق السفلي كادوا يختنقون، وكم مرة سلط عليهم البحّارة أنابيب الماء الساخن لمنعهم من الاحتجاج على سوء المعاملة، وكم مرة حملتهم الباخرة إلى حيث لا يقصدون وأنزلتهم البلد الذي يوافق مصلحتها (صيدح، ١٩٦٤، ص٣٠).

١. شكر الله الجُرّ: ولد في قرية يحشوش (فتوح كسروان – لبنان) وهاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٢. كان عضواً بنقابة الصحافة البرازيلية، وأسهم في تأسيس العصبة الأندلسية في المهجر الجنوبي (١٩٣٢) وأنشأ مع أخيه: النادي الفينيقي، وعصبة الأدب اللبناني. له من الدواوين المنشورة: «الروافد»، و«زنابق الفجر»، و«أغاني الليل» و«بروق ورعود»، و«ظلال وأشباح»: (شعر ونثر) (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٦٠).

Archive of SID

www.SID.ir

نستشفُّ ممّا مضى أنّ حياة الأديب بعد مكابدته المُضنية في أثناء السفر ومن ثم وصوله إلى المهجر تبدو خاطره مكسور ومعنوياته في درجة الصفر، لا أمل إلا بالعمل، ولكن في أي حقل يعمل وهو الغريب الجاهل الأبكم! إذ إنّ التجارة تستلزم رأسمال وهو صفر اليدين وليس لديه ما يملكُ ويتّكأ عليه، والزراعة تتقاضى المهاجرَ جهود السنين الطويلة ليغذي أهله الجياع في الوطن وليعود إلى إلى أهله في أقرب وقت؛ إذاً الأسباب تفاعلت في قنوطه واستسلامه أمام قسوة الدهر والأيام في الأرض التي لا وجود فيها من الخلاّن والأحباب.

وهناك لوحة فنيّة رائعة يرسمها الياس فرحات[1] حين يصور جهاده المكابد وصراعه المرير مع أسباب المعيشة هناك؛ إذ يقول فيها:

نَبِيتُ بأكْواخٍ خَلَتْ مِن أُناسِها ... وَقامَ عَليهَا اليومُ مَنْ يَبكي ويَندُبُ
مُفَكَّكَةٌ جُدارُنُها وسُقوفُها ... يَظَلُّ علينا النَّجمُ فيها ويَغْرُبُ
ومَأكَلُنا مِمّا نَصيدُ وطَالَما ... طَوَينَا لأَنَّ الصَّيدَ عَنّا مُغيَّبُ

(فرحات، ١٩٥٦، ص٣٢)

إنّ ما يعني من مغزى هذه الأبيات الشعرية من المفهوم هو الخواطر التي تمرّ بخاطر الشاعر من البؤس والقنوط والإحباط الذي سيطر على نفوس مواطنيه إذ جرّهم إلى الهجرة وترك بيوتهم الحقيرة وما بقت منها إلا صيحة الويل والندبة والتأوّه والبكاء لمن يتذكر عمرانها أو يرى خرابها ودمارها. وأن هناك جدّة الأيام ومروها أضافت على المأساة أيضاً، وهي نسيان الإنسان نفسه وآماله وقراراته التي جعلها نصب عينه لعله يصل إليها.

ونرى أيضاً أنّ الألم يعصفُ بنفس الشاعر القروي وهو يشكو قسوة الأيام مثلما يشكو قسوة الحرمان، إذ كان ضحيّة الإثنين معاً إذ يبادر بشكوته قائلاً:

هل بَينَكُم يا قومُ مَن يَرحَمُني ... ويُزَحْزِحُ الأيّامَ عن كَاهِلِي
يَقذُفُ بي في دَرَكِ اللُّجِ فَلا ... يَلْفُظُني مَوجٌ إلى سَاحِلِ

(جحا، ١٩٦٥، ص١٩)

١. الياس فرحات: (١٨٩٣ – ١٩٧٦) شاعر مهجري، ولد في قرية كفر شيما اللبنانية، تلقى دروسه الأولى في مدرسة القرية، ثم ما لبث أن تركها وهو في العاشرة من عمره يتدرب على المهن اليدوية عله يجد فيها طريق النجاح. وفي سنة ١٩١٠ هاجر إلى البرازيل، ولديه عدة دواوين بأسماء فصول السنة: «الربيع»، «الصيف»، «الخريف»، «مطلع الشتاء» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٨٦).

Archive of SID

www.SID.ir

نستخرجُ من الأبيات المذكورة أن السنين تمضي على الشاعر القروي ـ كما مضت على الكثيرين من المغتربين دون أن يبسم لهم القدر ـ وكأنّ الأيام آكلةٌ من عمره. إنه يشعر بعمق مأساته ويندب حياته بكثير من اللوعة، ولم ير طريقاً أمامه إلا الجلوس في زوايا الغرفة والمجالسة مع القلم والورق ربّما يريّحانه من الضغط العصبي الذي هو فيه، لعلّه لايموت غصّةً من قذى الحياة القاسية المحيطة به؛ ولذا موضوع الفقر والحرمان كان أثيراً لدى شعراء المهجر لاتصاله الوثيق بحياتهم، وإحساسهم الحاد به، فقصائدهم لم تعكس في جوانبها إلاّ صوراً قاتمةً. ولعلّ مردّ ذلك إلى الحياة، الفاقة التي ابتلي بها أكثر الشعراء في مهجرهم القصيّ.

إن مثل الحياة كصفقة تجارية، يمدحها من يربح بها ويذمّها من يخسر فيها وليست بالنسبة إلى الجميع متساوية ولكن الإحساس المرهف بوطأة الحياة إنّما هو في جبلّة كلّ شاعر، وفيلسوف أديب كالمتنبي[١]، وأبي العلاء المعري[٢]، وروسو[٣]، وشوبنهاور[٤] الذين اتسمتْ أكثر صورهم بملامح متشائمة (الدقاق، دون تا، ص٣١).

١. المُتَنَبّي: (٩١٥ – ٩٦٥م) أبو الطيب الكندي، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة، ثم انتقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس.قال الشعر صبياً، وتنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون. وفد على سيف الدولة الحمداني صاحب حلب فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي وطلب منه أن يوليه، فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه.قصد العراق وفارس، فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي في شيراز، له ديوان شعر والأمثال السائرة والحكم (انظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ٢٠٠٦، ص٥١٣).

٢. أبو العلاء المعري: (٩٧٣ – ١٠٥٧هـ) ولد في معرّة النعمان، شاعر مفكر. كان رفيق العاطفة، ثاقب العقل، لاذع الإنتقاد، دقيق الاحساس، متبرّماً بالناس والدنيا وكثير التشاؤم. من مؤلفاته، «اللزوميات»، «رسالة الغفران» في قصة إلهية طريفة (انظر: المنجد في الأعلام، ص١٧).

٣. جان جاك روسو: (١٧١٢ – ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي، وُلد في مدينة جنيف فيما يُعرف الآن بسويسرا. وكانت أسرته من أصل بروتستانتي فرنسي. توفيت أمه عقب ولادته مباشرة، تاركة الطفل لينشأ في كنف والده، الذي عُرف بميله إلى الخصام والمشاجرة.كان دائمًا تستهويه الموسيقى. وظل لسنوات متردداً بين احتراف الكتابة أو الموسيقى. كان أهم كاتب في عصر العقل وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة (انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج١، ٢٠٠٦، ص٥٥).

٤. آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ – ١٨٦٠م) فيلسوف ألماني، ولد في دانزيج. وبناءً على إلحاح والده، بدأ التدريب في إدارة الأعمال. لكنه عاد إلى الفلسفة بعد وفاة والده. وأول كتاب ألّفه هو حول الجذر رباعي الطبقات لمبدأ السبب الكافي (عام ١٨١٣م). أهم أعماله: العالم رغبة وعَرَض (عام ١٨١٩م) إضافة إلى مجموعة مقالات بعنوان باريرجا وبارالليبومينا عام (١٨٥١م) جلبت له شهرة عالمية حتى نهاية حياته.اشتهر على نطاق واسع بسبب آرائه التشاؤمية وأسلوبه النثري المرهف. تأثر شوبنهاور بقوة بالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج١، ٢٠٠٦، ص٢).

Archive of SID

www.SID.ir

فالشاعر والأديب المهاجر العربي لم يتغرب، ويتحمل مرارة الهجران في كثير من الأحيان ليخلع عن نفسه ربقة التسلط التركي وينشد العزة القومية، ولم يكن يخطر بباله أنّ هذا اللقب (العِزَّة) سيطاردهُ إلى العالم الجديد ويقول الياس فرحات بهذا الصدد:

أقــولُ لنَفْسِــي كُلَّمَــا عَضَّــها الأسَــى ... فَآلَمَهَــا: صَــبراً فَفِــي الصــبرِ مَكْسَــبُ
لَــئِنْ كــانَ صَــعْباً حَمْلُــكِ الهَــمَّ والأَذَى ... فَحَمْلِــي مِــن النَّــاسِ لا شَــكَّ أصــعَبُ

(فرحات، ١٩٥٦، ص٣٨)

إذاً لقد كانت حياة الأدباء سلسلة من الشقاء والعذاب في سبيل الرزق ويعملون ليلاً ونهاراً في المدن وخارجها، في القرى النائية أو المزارع البعيدة أو الغابات التي ليست آمنة، إضافة إلى الإهانات التي كانوا يتعرضون لها، والتي فيها داست كرامتهم؛ إذ يشير فرحات في قصيدته الطويلة «الحياةُ مشقاتٌ» ويبكي حظَّهُ ويصوّر شقاءه وحرمانه قائلاً:

أرَاقِــبُ في الظَّلمــاءِ مَــا اللَّيــلُ يَحْجُــبُ ... وأقــرأُ في الأَسْمَــارِ مَــا اللهُ يَكْتُــبُ
اسْــتَعرضُ الأَيَّــامَ، ويَــومي الَّــذي مَضَــى ... دَلِيــلٌ عَلَــى يَومِــي الَّــذي أتَرَقَّــبُ
فَــلا تَسْــأَلُوا عَنِّــي وَحَظِّــي فَإنَّنَــا ... لأَمْثَــالِ مَــا في الشَّــرقِ والغَــربِ مَضْــرَبُ
طَــوَى الــدَّهرُ مِــن عُمْــري ثَلاثــينَ حُقْبَــةً ... طَويــتُ بهــا الأَصْــقَاعَ أَسْــعَى وأدأبُ

(فرحات، ١٩٥٦، ص٣٩)

نستنبطُ من الأبيات الشعرية أنّ الأدباء الذين حملوا القلم كانوا قبل حمله قد تعرضوا لأقسى ما عرف الإنسان من قسوة الدهر، فلو استرجعنا سيرة فرحات نجد أن حياته كانت حافلة بالمغامرات فاستعان في بداية أمره بتربية الماشية، لكنّه مذ بدأ بتربيتها تدهورت أسعارها، وارتفع ثمنها، فترك هذه الصنعة وراح يعمل منضِّداً في مطبعة، ثمّ حمل الكشة، وأخذ يطوف من حين لآخر يبيع الأقمشة والثياب من قرية إلى قرية مشياً على الأقدام وسعياً وراء الرزق وقوت اليوم إلا أن سعيه قد تبدد لأن الحظّ أخذ يعاكسه فيكيد له ويرميه بسهامه.

ولندرة حداد ـ من شعراء الرابطة القلمية ـ بعض الأبيات التي يغلب عليها طابع الحزن والتشاؤم وهو كغيره من زملائه الشعراء يلومُ نفسه على حزنها وبكائها ويدعوها للطرب والابتهاج في قصيدة بعنوان «يا نفس» وكلّ ما يهمّه منها هو ألاّ تشكو النفسُ لأحد همّها، قائلاً:

رُوَيْــدكِ يــا نفــسُ لا تَجزَعِــي ... فَعَهــدي إليــكِ الحُــرَّةُ البَاسِــلَة
إذا مَــا رَميــتُ بِبَحــرِ الشَّــقاءِ ... فَإيَّــاكِ أن تَطلُــبي ساحِــلَه
فــإنَّ الحيــاةَ لَــدى العَاقليــنَ ... لَحُلْــمٌ وأَفْرَاحُــها بَاطِلَــة

Archive of SID

www.SID.ir

ومَــــا هــــي إلاّ مَقَــــرٌّ إليــــكِ ومَــــأوَى التَّعاسَــــةِ والنَّازِلَــــة

(حداد، ١٩٦٧ب، ص٢٧٠)

ما يلفت النظر هنا في الأبيات المذكوره هو أنّ الشاعر لقد عبّر عن ذاته وجعل من جراحه ينابيع الأشعار إذ يرى جهل أسرار الكون يريّح الإنسان وأن معرفته لها تقلق باله وتعقّد حياته. وتأتي تأملاته نتيجة خبرة في الحياة وتفكير بقضايا الوجود.

وقد نرى أن الأديب المهاجر يقف محتاراً ومتردداً بين البقاء والنزوح، مثال على ذلك الشاعر القروي الذي أبى أن يعيش في أرض الذل، لذا وقف على عُقرِ داره مضطرب القلب، قلق النفس يقدم مرة، ويحجم مرات في قصيدة بعنوان «عند الرحيل» قائلاً:

نَصَــحتُكِ يــا نفــسُ لا تَطمَعــي وقلــتُ: حــذارَ فَلَــم تَســمَعي

فــإن كنــتِ تَستَسْــهِلينَ الــوَداعَ كــما تَــدَّعينَ إذاً وَدِّعــي

(سليم الخوري، ١٩٧٨، ص١٣٨)

إلاّ أنّ الشاعر إيليا أبوماضي يخاطبُ نفسه بلهجة تختلفُ عن لهجة الشاعر القروي، قائلاً:

لا تَقْلَقِــي يــومَ النَّــوى أو فَــاقْلَقي يــا نفــسُ كُــلُّ تجمُّــعٍ لِتَفَــرُّقِ

اللهُ قَــدَّرَ أن تَمَــسَّ يــدُ الأَســى أرواحَنَــا مَسّــاً تُــرِقُّ وتَرتَقــي

لا أضــربُ الأمثــالَ مَــدحاً للنَّــوى ليــتَ الفــراقَ ويومَــه لم يُخلَــقِ

(أبوماضي، ١٩٧٠، ص١٤٥)

نستنبطُ ممّا مضى أن الشاعر لو كان يعلم ما تخبأوه له الأقدار لأحجمَ عن الذهاب، وفَضَّلَ الهوان والعذاب في بلده على حياة التشرد في بلاد المهجر، لأنه ذاق الأمرين: مرارة الشقاء ومرارة الفقر في تلك الحياة المادية القاسية والبعيدة عن الروح. ولقد عبّر عن يأس الكثيرين المرير حين تمنّى لو يحدّ إنساناً يرحمهُ فيقذفهُ بين أمواج المحيط تذهبُ به بعيداً.

المقارنة

الشاعر القروي	إيليا أبوماضي
الإقدام على النزوح مرة والإحجام عنه مرة	الإقدام على النزوح قطعاً
تردّد	قطعية

ما يقصد من هذه المقارنة، هو أنّ الشاعرين هما عزما على السفر والنزوح من بلدهم ولكن ثمّة افتراق بينهما، ألا وهو القطعية والتردّد. كما يستبين من الجدول واضحا أنّ الشاعر

Archive of SID

www.SID.ir

القروي كان يتردّد في اتخاذ قرار السفر؛ لأنّ القلقة والتعلّق الشديد لديه بالنسبة للأهل والبلد، جعله ألّا يكون قاطعاً في قرار السفر؛ بينما إيليا أبوماضي عزم على السفر قطعاً وما سمح لأيّ حافز من الحوافز العاطفية وغير العاطفية يردّده ويذبذبه في اتخاذ قراره.

تأثير الهجرة على المغتربين من الناحية النفسية

ما يُرشّحُ من الحنين هو النواح والكآبة والميل إلى الهرب، ومرارة للنسيان. والحنين ليس إلا مظهراً لنفوس الشعراء في لحظات من التأمل الشخصي الجبار؛ أما الكآبة التي كانت تطوف بنفوس الشعراء في لحظات من التأمل الصامت كثيراً ما كانت ينبوعاً ثريّاً للشعر الرقيق الحزين الذي يعبّر عن أسى القلب والوجدان وهذا يوجد عند الشاعر فيليب لطف الله[١] في قصيدته «أناشيد الغروب» قائلاً:

أُهَـــاجِرُ لبنانَـــا وفي الحَلْـــقِ غُصَّـــةٌ ... وفي القَلْـبِ غُصَّـاتٌ وفي العـينِ أدمُـعُ
وفي الـنَّفسِ أنّـاتٌ علـى مَـن هَجَـرتُهم ... أصـــحابَ وأحبـــابَ وأهـــلَ وأرْبُـــعُ
وَشَـــوقٌ بـــه نـــارُ الجحـــيم تأجَّجَـــتْ ... هـي الحبُّ، هـل يَومـاً إلى العُـشِّ أرجَـعُ
وَخَفَّفْـــتُ عـــن نَفســـي بِـــدَمْعٍ ذَرَفتُـــهُ ... وكُــلُّ يَمَــامٍ فَــارقَ السِّــربَ يَســجَعُ

(بهاء الدين، ١٩٨٠، ص٣٠٠)

إذن نظراً إلى كلّ هذه المعطيات الشعريه، يمكن القول أن طابع الحزن والتشاؤم يغلب على هذه الأشعار وأن المهاجر يقف محتاراً ومتردّداً بين البقاء والنزوح وأيّ لسانٍ يردّدُ هذه الأبيات، يرتعشُ كارتعاش أوتار الكمان بحنين دونه حنين عظيم إلى الأمّ والفرح التائه إلى العشّ. وإنّ للماضي جمالاً فيه سعةٌ وريٌّ ولذائذ تشعر بها دقّات القلوب ولكن المستقبل الذي وقف أمام الشاعر جعله يشعر أن التحفة التي أهدي إليه في بلد غريب ليست إلا الأنات والغصّات.

المقارنة

الحنين	الكآبة
مظهر تأمل شخصي	ينبوع ثري للشعر الحزين

١. فيليب لطف الله: (١٨٩٧–١٩٧٨م) ولد في بسكنتا بلبنان، هاجر إلى البرازيل منصرفاً إلى العمل بالتجارة مع أخيه سليم، إلا أن التجارة لم تصرفه عن ممارسة الكتابة نثراً ونظماً وزجلاً. وانتاجه الأدبي فلقد ظهر في كتاب عنوانه «نسمات برازيلية» و«نسمات الجبل» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٢٨٤).

Archive of SID
www.SID.ir

ونرى مسحة التشاؤم هذه، على معظم نفسيات شعراء الرابطة القلمية، على سبيل المثال منهم الشاعر رشيد أيوب، فلقد ألف نفسه الحزن، وتعودتْ عليه، فأصبحت عنده بمنزلة الرفيق والأنيس، وذلك أنّه كان يعزفُ على وَتَر الحزن، أشجى الألحان وأشدها أسى في النفوس، وعلى هذا الوتر عزف كل أنغامه في ديوان «أغاني الدرويش».

ففي هذا الديوان نجدُه درويشاً هائماً بحبّ ذلك العزيز المفقود -وطنه- وأنّ أناشيد الحنين هي التي تُهَدهِدُ في نفسه لوعة الاغتراب وعناء التفكير في الأماني العريضة، ويبدو نفسه بعد أن يقارن بين حاله وحال الناس، قائلاً: «أنهم يشربون الماء ويسكرون بالخمر، وشتّان بيني وبينهم؛ لأنّ نفسي لا تشرب إلا من نوى الليل المتلالئ على الأوراق الساقطة من شجر الخريف» (داوود، ١٩٦٧، ص١٤٧).

ونجد الشاعر أنه يعبّر دائماً في شعره عن حزنه، ويصف آلامه ويشكو من وحدته، ويئنُّ من قسوة الحياة حوله. وممّا يؤكد أصالة نزعة الحزن في نفسه وشدّة ميله إلى مظاهر الكآبة والألم قوله الذي اختتم به الديوان الثالث تحت عنوان «هي الدنيا» قائلاً: «النفس التي لا تتألم لا جمال فيها، ولا تقترب من الله» (السراج، ١٩٥٧، ص٣٥٣).

وعندما نتأمل أكثر لدى الشاعر نرى قدرته على النواح والأنين والشعور باللذة والانسجام في حالات الحزن والاكتئاب التي لا توجد مثيلها عند الشخص العادي، ولكن نفس الشاعر الهائمة وروحه المضطربة التي لا تهدأ، ولا يقرّ لها قرار، قد يستعذبُ الأشعار، ويطرب لسماعها، ويعجبهُ انتشارها إذ يقول مُبدياً رأيه فيها:«خير الأشعار ما ساقتْهُ الأقدار، وفي القلب نار، وفي الروح تذكار، وفي العين مدرار» (السراج، ١٩٥٧، ص٣٥٤).

ونلاحظ أنّ المدة التي قضاها في المهجر، يندبُ حظه ويبكي شبابه ويحنُّ إلى لبنانه، ويهيم في بيداء أحلامه حتى أطلقوا عليه لقب «الدرويش» وسمّاهُ البعض «الشاعر الشاكي» وقد قال في الديوان الثاني له:

هـــــــي تِـــــــــذكَاراتُ شَـــــــاعر عَـــــــاشَ في الـــــدُّنيا شَـــــريد
وَمَضَـــــــى في الأمـــــــرِ حَـــــائر يَقصُـــــــدُ الضَّــــــوءَ البعيـــــــد

(أيوب، ١٩٥٩ب، ص١٢٠)

نستشفُ مما مضى أن رشيد قد عاش ما عاش، دون أن يعرف الهدف الذي من أجله وُجِدَ والغاية التي بُعِثَتْ به إلى المهجر، فضاعت من جرّاء ذلك حقيقة نفسه من بين يديه، وفَقَدَ ملامح وجوده، ولم يملك غير أن يستمرَّ في تجواله، غير فاهم لنفسه، قائلاً:

Archive of SID

www.SID.ir

ألا يـــــا ســـــــاكنَ الـــــــدُّنيا ... تَعَـــــالَوا اسْـــــتَنطِقُوا فــــــاهُ
سَـــــــلُوهُ رُبَّمـــــــا المســـــكينُ ... ســــــوءُ الحَـــــظِّ أقصَــــــاهُ
فَقَـــــالوا: إنـــــــهُ صَـــــــبٌّ ... وفَـــــرْطُ الحُـــــبِّ أغنَـــــاهُ
وقَـــــالوا: شَـــــاعرٌ يَشـــــكُو ... فَمَـــــا تُجْدِيـــــهِ شَـــــكْوَاهُ
ومِنـــــهُم قـــــالَ: دَرويـــــشٌ ... غَريـــــبٌ ضَـــــاعَ مَـــــأوَاهُ

(أيوب، ١٩٥٩ب، ص٣٩)

نرى أنّ حيرة رشيد أيوب، إنما هي حيرة مستسلمة تلتمسُ بلسماً لشفائها، ترياقاً بعيداً عن عالم المتفكرين والمتأملين ولا بدّ من القول أن الشاعر لم يتخل عن نزعة الحزن التي سيطرت عليه في «أيوبياته» حتى بعد انضمامه للرابطة، فإن انضمامه إليها قد زادت تلك النزعة، لأنه في خلال هذه الفترة تبلورتْ نزعته الأدبية، وأصبح أقرب إلى الرومانسية التي تعتبر الكآبة والحزن طابعاها الأساسيان، والتي غلفت معظم قصائده بطابع الحزن والكآبة (محمد خالد، ١٩٨١، ص٣٩). ولقد رافقه هذا الطابع الرومانسي حتى عندما أثقلت كاهله السنون، فوجد فيه تجاوباً مع ميله الذاتي المتحسّر على ذهاب الشباب، لذا أركن إلى احلامه ونجومه وسمائه، وأصبح الوطن لا يمثّلُ الحقائق الأساسية، والصراع من أجل الحريّة وإنما يمثّلُ الحبّ والحنين والغاب وعهد الطفولة، والموقد والثلج. ويمكن أن نقرنُ بين أخفاقه الماديّ، وهذا الاتجاه، كما يجب ألا نغفل حقيقة كبرى ألا وهي أن بذور الرومانطيقية كانت موجودة في نفس رشيد قبل مواجهته لكلّ هذه المؤثرات، وكان من أبرز مظاهرها في «الأيوبيات» تلك الدموع التي ذرفها على الشباب، فلشبابه في نفسه صورة رومانطيقية حين كان يقضى أيامه (عباس، ١٩٥٧، ص٢٣).

وقريب من رشيد أيوب هو الشاعر ندرة حداد، فكلاهما حزين على فراق وطنهما، وعلى آمالهما المبعثرة في المهجر، غير أن رشيداً يلجأ إلى التعزي بالنسيان، ويجد في الخمر وفي الشعر مُسَلاَّهُ عمّا يسببهُ له من حيرة وألم، بينما ندرة يجد نفسه في ذبول الطبيعة، وتَصَوُّحِ أشجارها، وسقوط أوراقها تحت أقدام الخريف، فيُغني لكل ذلك غناءً حزيناً رقيقاً، وهو شاعر غير بعيد الغور، لذا لم يبق مجال لاستبطان ذاته، ولا تصويرُ صراعٍ حادٍّ مع الوجود (داوود، ١٩٦٧، ص١٩٨).

المقارنة

رشيد ايوب	ندرة حداد
حزين على فراق وطنه	حزين على فراق وطنه
يلجأ إلى النسيان ويجد في الخمر والشعر مُسَلَّى للألم	يلجأ إلى الطبيعة وتصوّح أشجارها فيغني لها غناء حزيناً رقيقاً

Archive of SID

www.SID.ir

وندرة حداد في شعره عن الخريف يصور نفسه من الخارج، فعندما يرى الخريف يتذكر نفسه التي تذوى هي أيضاً في يد الزمن، ويتسائلُ هل ستعود للإزدهار بعد الموت كما ستعود أوراق الخريف مع دورة الحياة، قائلاً: (حداد، ١٩٦٧ب، ص٨٩)

يا زَهْرَةٌ لَعبَتْ بها أيدي الزمانِ القاسيةِ
ما أنتِ وَحدُكِ يا جميلةُ بعد عزِّك ذَاوِية
فَستَرجعينَ وإن ذَبَلْتِ معَ الطبيعةِ ثانية

والمتتبِّع لشعر عقل الجُرّ[١] يجد الكثير من الزفرات في شعره، وأيضاً الحسرات التي ينفثها على فراق وطنه، فقد صوّر هواجس قلبه في غربته، وهو الذي ضاق لبنانُ عن آماله، فإذا هو في المهجر الغُصَّةُ تلو الغُصَّة. وكان يُوعِدُ النفس بالجاه والمال، ولكنه كدَّ وجدَّ، وأفنى أيامه متعلقاً بأمل أضحى له سراباً، فعاد اليأس يملأ قلبه الذي سيظلُّ يخفق باللهفة والحنين حتى يواريه الثَّرى، قائلاً:

غُصَّـــةٌ تِلْـــو غُصَّـــةٌ تِلْـــو أُخْـــرى ... بـــينَ أضْـــلاعِهِ تُـــؤَجِّجُ نَـــارا
وهـــو في غُربَـــةٍ تَحَـــوَّلَ فيهـــا الشَّـــوقُ ... أفْـــــراحَ قَلبـــــهِ أكْـــــدَارا
وسَـــــيُغنِّي أيَّامَـــــهُ ولياليـــــهُ ... إلى يَـــــومٍ في الثَّـــــرى يَتَـــــوَارَى

(الجُر، ١٩٩٠، ص٤٦)

نستخرج من الأبيات الشعرية أن الوطن لدى الأديب المهاجر عزيز وأهله أحباء، وأنه لا يرى حاجة إلى الهجرة ومفارقة الأهل حينما العيش ميسور والحياة كريمة طيبة، ففي حكاية الهجرة حياة الغصة والغربة تشتدُّ وتضيقُ حتّى يجد المهاجر على أرضه من يأنس بهم ويأنسون به؛ وهذا النوع من التشاؤم الذي يسيطر على نفسية الأديب المهاجر، يدفعه إلى الحيرة والتساؤل في العودة إلى الوطن ورؤيتهِ مجدداً أو لا ستواجه أن أمانيه تذهب أدراج الرياح! وهذه الحالة تخلقُ نفسية متوترة يصعب معها الهدوء وتكثر فيها الشكوك ويتخذ بها الوجود لوناً قاتماً ينفرُ منهُ القلب ويتحول الشوق إلى الأكدار.

١. عقل الجُرّ: (١٨٨٦ - ١٩٤٦م) ولد في قرية يحشوش بلبنان، ثم هاجر إلى البرازيل قبل وصول أخيه شكرالله الجر بخمس سنوات. وفي فترة قصيرة أصبح من شعراء المهجر الجنوبي، لذا عمل على تأسيس النادي الفينيقي وهي ندوة أدبية جعلها ميداناً لفرسان الشعر. له ديوان بعنوان «ديوان عقل الجر» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص٦٣).

Archive of SID

www.SID.ir

ولجورج صيدح[١] قصيدة بعنوان «العام الجديد» يعبّر فيها عن يأسه من العودة إلى وطنه، ويضيق ذرعاً بغربته حتى ليظن أن رجوعه إلى الوطن أصبح في يد العنقاء، قائلاً:

أيعـــودُ للـــوَطنِ الغَريـــبُ النَّـــائي ... يـــا رَبِّ هَوِّنْهَـــا علـــى الغُرَبـــاءِ
حَتّـــى مَـــتى يَبْـــرى الحَـــنينُ صُـــدورَهم ... وَالعـــامُ يَتلُـــو العَـــامُ دُونَ لقـــاءِ
وَكَـــأَنَّهُم أَخَـــذوا عَلَـــى طُـــولِ النَّـــوَى ... عَهْـــداً لأَنفُســـهم بِطُـــولِ بَقَـــاءِ
يـــا سَـــائلَ الأيـــَّامِ تحقيـــقَ الـــرُّؤى ... أَبْشِـــرْ جَوابَـــكَ في فَـــمِ العَنْقـــاءِ
بَـــينَ المُهاجِـــرِ والـــدِّيارِ حَوائـــلٌ ... غـــيرَ اجْتِيـــازِ البَحْـــرِ والبَيـــداءِ

(صيدح، ١٩٧٠، ص١٤٨)

تشير مفاهيم الأبيات المذكورة إلى أن الشاعر الأديب جورج صيدح بعد مواجهته الصعوبات في الوصول إلى أمانيه في المهجر، ابتلي باليأس وترك الواقعية، إذ رأى العودة مستحيلاً عبر البحر والبيداء وجرّهُ إلى أن يسلك سبيل الوهم ولاكائن يقدر يوصلهُ إلى الوطن غير العنقاء ولا موجود يحمل له البشارة إلاّ هذا الطائر الأسطوري الخيالي.

النتيجة

يمكن لنا أن نعرض بعض الانطباعات والنتائج التي توصلت إليها الدراسة على نقاط عدّة وهي:

١. أهمّ أسباب نزوع شعراء المهجر إلى ترك الوطن هي:

أ) العامل السياسي أي فقدان الحرية وسيطرة الجور والاضطهاد فترة استيلاء العثمانيين.

ب) العامل الاقتصادي أي الفقر والحرمان السائد في البلدان العربية ومنها لبنان.

ج) العامل الديني أي وجود الهيئات التبشيرية الدينية والنزعات الطائفية.

٢. كان الوطن من أهمّ المضامين في أشعار شعراء المهجر، وعلى الأخصّ حين تركوا أوطانهم ونزحوا إلى الغربة، حلّل بعض مشاكلهم في الحياة كالتخلّص من الظلم

١. جورج صيدح: ولد بدمشق، وعلم من أعلام العرب في القومية والوطنية ومن عمالقة الشعر المهجري، وأحد مؤسسي (الرابطة الأدبية)، وفي عام ١٩٤٧انتقل إلى الأرجنتين وطبع ديوانه الأول (النوافل) وديوانه الثالث »حكاية مغترب» (انظر: الموسوعة العربيّة العالمية، ١٩٩٦، ص١٥٩).

Archive of SID

www.SID.ir

والاضطهاد ولكنّهم سرعان ما واجهوا مشاكل وصعوبات أخرى، ألا وهي البعد والنوي وما يترتّب عليهما من الآلام الروحية. علاوة على هذا علينا ألّا ننسى أنّ المشاكل الاقتصادية ما حلّت كما يتمنّون.

٣. بما أنّ الهجرة ما استطاعت أن تعالج مشاكل الشعراء خاصة المشاكل الاقتصادية، لم تتحقق آمالهم بل جعلتهم يميلون إلى المشاعر السلبية كالحزن واليأس والإحباط.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أبوماضي، إيليا (دون تا). *التبر والتراب*. ط ٥، بيروت: دار العلم للملايين.

٢. ـــــــــــ (١٩٧٠). *الجداول*. بيروت: دار العلم للملايين.

٣. أيوب، رشيد (١٩٥٩ أ). *أغاني الدرويش*. بيروت: دار صادر.

٤. ـــــــــــ (١٩٥٩ ب). *الأيوبيات*. بيروت: دار صادر.

٥. بهاء الدين، وحيد الدين (١٩٨٠). *أناشيد الغروب*. البرازيل: مطبعة سان باولو.

٦. الجُر، شكرالله (١٩٣٤). *ديوان شعر (الروافد)*. البرازيل: مطبعة سان باولو.

٧. الجُر، عقل (١٩٩٠). *ديوان شعر*. بيروت: دار الثقافة.

٨. جحا، فريد (١٩٦٥). *العروبة في شعر المهجر*. بيروت: مكتبه رأس بيروت.

٩. حداد، ندرة (١٩٦٧ أ). *أوراق الخريف*. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة.

١٠. ـــــــــــ (١٩٦٧ ب). *ديوان شعر*. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة.

١١. الحموي، تقي الدين (١٩٨٧). *خزانة الأدب وغاية الأرب*. تحقيق عصام شعيتو، ج١، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

١٢. الخفاجي، محمد عبدالمنعم (١٩٨٠). *قصة الأدب المهجري*. ط ٣، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

١٣. الخوري، رشيد سليم (١٩٧٨). *ديوان الشاعر القروي*. بيروت: دار المسيرة.

١٤. داوود، أنس (١٩٦٧). *التجديد في شعر المهجر*. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة.

١٥. الدقاق، عمر (دون تا). *شعراء العصبة الأندلسية*. بيروت: دار الفكر المعاصر.

١٦. سراج، نادرة (١٩٥٧). *شعراء الرابطة القلمية*. القاهرة: دار المعارف.

١٧. سماحة، مسعود حنّا (١٩١٨). *ديوان شعر*. شيكاغو: [دون نا].

١٨. الشريف الرضي، محمد بن الحسين (٢٠١١). *نهج البلاغة*. تحقيق هاشم الميلاني، النجف: العتبة العلوية المقدسة.

١٩. صيدح، جورج (١٩٦٤). *أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية*. ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين.

٢٠. ـــــــــــ (١٩٧٠). *ديوان النوافل*. بيروت: دار العلم للملايين.

٢١. الطبرسي، على بن رضي الدين (١٣٦٤ش). *مشكاة الأنوار في غرر الأخبار*. مشهد: نشر طوس.

Archive of SID

www.SID.ir

٢٢. عباس، إحسان (١٩٥٧). *الشعر العربي في المهجر*. بيروت: دار صادر.

٢٣. عريضة، نسيب (١٩٤٦). *ديوان شعر (الأرواح الحائرة)*. نيويورك: [دون نا].

٢٤. فرحات، إلياس (١٩٥٦). *ديوان شعر*. عمان: [دون نا].

٢٥. مجموعة من المؤلفين (١٩٩٦). *الموسوعة العربيّة العالمية*. الرياض: مؤسّسة أعمال الموسوعة.

٢٦. ـــــــــــــــ (٢٠٠٦). *موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين*. بيروت: دار الجيل.

٢٧. محمد خالد، عائدة (١٩٨١). *الحنين في شعر المهجر*. رسالة الماجستير، الجامعة اللبنانية.

Archive of SID

www.SID.ir